

كامل كيلاني

قصة فاهية

بنت الصباغ

الطبعة التاسعة



دار المعارف بمصر

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الفصل الأول

١ - المتنافسان

حدث راوي هذه القص -منذ مئات من السنين- أن طفلين صغيرين كانا في مثل سنك
وذكائك، عاشا في مدينة "بغداد"، في منزلين متقابلين، على نهر "دجلة".

وقد جمعتهما مدرسة واحدة، كما جمعهما حي واحد، وبلد واحد، وزمن واحد.

وكان كلاهما محبا للدرس مقبلا على العلم، لا يقصر في أداء واجب مدرسي، ولا يقر
قراره أو يسبق لداته وأترابه (أي: الأولاد الذين وتربوا معه)، ويبذ أقرانه وأصحابه (أي: يفوقهم
ويغلبهم)، في طلب العلم وتحصيله، والاستزادة من فنون الثقافة، وأفانين المعرفة، أي: أساليبها
وأجناسها وطرقها.

٢ - بين عهدين

ولم تنقطع المنافسة بينهما منذ طفولتهما حتى بلغا سن الشباب. ولم يفتر منهما العزم،
أعني: لم تسكن منهما الهمة بعد حدثها، ولم تثن منهما العزيمة بعد شدتها، بل زادت في مرحلتي
الشباب والكهولة، عما ألفاه في زمن الطفولة.

وقد قسم لأحدهما -وهو "أبو حمزة على بن صابر"- أن يعين أمير شرطة "بغداد"، كما
قسم للآخر - وهو "أبو ثعلبة زياد بن طلحة"- أن يعين حاكما لها.

٣ - الخبيث والطيب

قلت لك -أيها الصبي العزيز- إن هذين الطفلين كان كلاهما في مثل سنك (أي: عمرك)، وفي مثل ذكائك، ولم أقل إن كليهما كان في مثل آدابك وأخلاقك. ولو قلت ذلك، لوقعت في خطأ لا يغتفر.

فقد كان "أبو حمزة" يجمع -إلى ذكائه وإقباله على التحصيل- طيبة القلب وطهارة اللسان. فهو أشبه إنسان بك، لأنه لا يفكر إلا في الخير، ولا يتأخر عن بذل المعروف لمن يستحقه. وكان لا يخطر له الأذى على بال، ولا يجزي على الإساءة بغير الإحسان، فلقب لذلك بـ "الموفق".

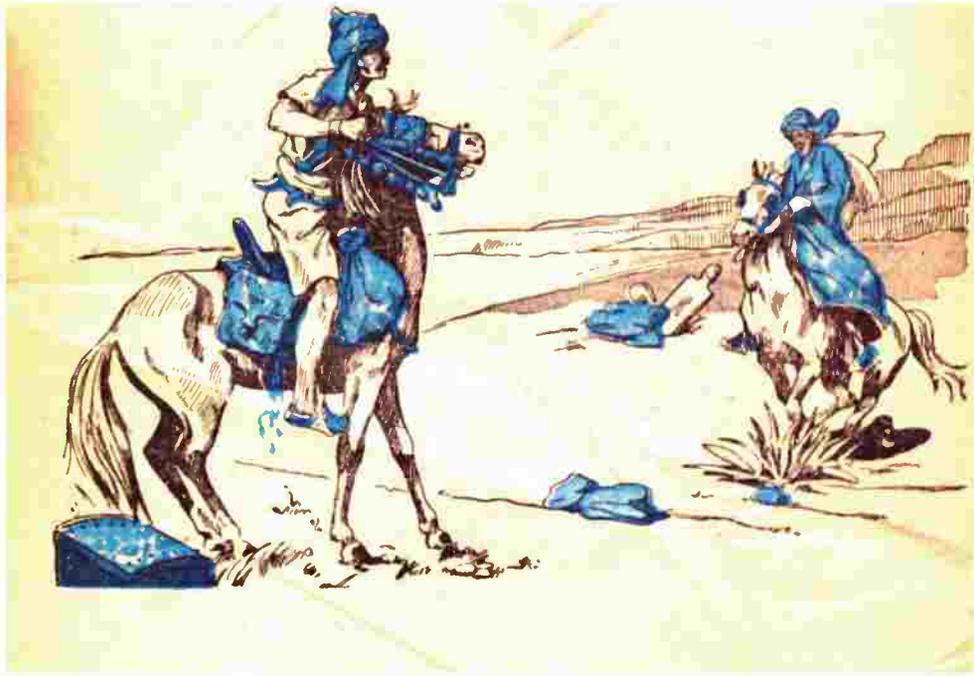
أما "أبو ثعلبة" فكان -على العكس من صاحبه- مثالا للخادع الدساس، المولع بالكيد والإيقاع بين الناس. فهو لا يسخر ذكاءه وفطنته، وعلمه وبراعته، في غير الإساءة والضرر، وجلب الأذى والشر، فأطلق عليه عارفوه لقب: "المرامق". فلا تعجب إذا قلت لك إن الخلاف قد بدأ يدب بينهما -منذ طفولتهما- لأن الخبيث والطيب لا يستويان، والمسيء والمحسن لا يأتلفان، والشرير والخير لا ينفقان، والمرامق والموفق لا يجتمعان. وكان من الطبيعي أن يتكرر كلاهما للأخر (أي: يصبح غريبا عنه)، فلا يرضاه صديقا له وصاحبه

٤ - عزل "الموفق"

وقد ذاعت -بين الأهليين- منافستهما في عهد الطفولة، وخصومتها في زمن الشباب والكهولة وتحدث الناس بما عرفوه من أخبارهما، منذ استقبلا أيام الدراسة الأولى، إلى أن بلغا منصبى إمارة الشرطة وحكومة المدينة. وهما من أرفع المناصب التي يتطلع إليها سراة القوم، أي: أشرفهم. وما لبث دسائس "المرامق" أن انتهت بإقالة "الموفق" (أي: عزله) من منصبه. ولم يكن نجاحه في كيدته ومؤامرتة، شافيا لحقده وحزازته. والحزاة: وجع في القلب من غيظ أو حسد.

٥ - عصابة اللصوص

لقد أقسم "المرامق" ليقفن حياته كلها على الكيد والإساءة إلى كل ماجد كريم. فلما أتت له فرصة جديدة لشفاء أحقاده من منافسة "الموفق" انتهزها، وهو يحسب أن التوفيق حليفة فيما دبره له، أعنى: فيما ربه ونظمه وأطال التفكير في عاقبته. ولم يعلم أن البغي مرتعة وخيم، وأن على الباغي تدور الدوائر، أي: على الجاني تنزل الدواهي. كان العسس (أي: الخفراء) يمرّون - على عادتهم - في أطراف "بغداد" ليلاً، وقد أريت عدتهم (أي: زاد عددهم) على العشرين عاساً، والعاس: هو الخفير الذي يطوف ليحرس الناس ليلاً. وما زال العسس يعسون، أعنى: يطوفون بالليل ليحرسوا الناس ويكشفوا أهل الريبة، حتى بلغوا منطقة المقابر. فسمعوا أصواتاً قريبة منهم، فأنصتوا، أي: سكتوا مستمعين لها، فأدركوا أن عصابة (أي: جماعة) من اللصوص، نقص أخبار يومها، وترسم برنامج غداً.

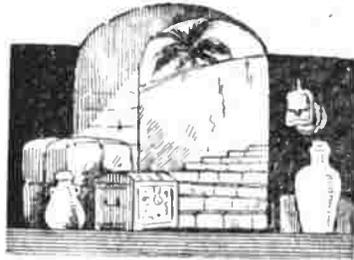


٦ - الفتى الغريب

وقد سمع العسس صوت الشيخ اللصوص وهو يحاور (أي: يناقش) فتى غريبا، ويطل إليه أن يشركهم في عملهم، ويندمج في زمرتهم، أي: ينضم إلى عصابتهم. ورأوا الفتى حائرا لا يعرف كيف يجيب، وقد انعقد لسانه من الخوف. وسمعوا شيخ اللصوص يعيد سؤاله، وقد غاظه من الفتى صمته وتردده. فاقترح العسس عليهم المقبرة التي كانوا يختبئون فيها، وقبضوا على العصابة وشيخها، وساقوا الفتى الغريب معهم، ثم زجوا بهم في السجن، حيث قضوا بقية الليل إلى الصباح.

٧ - بين يدي الحاكم

ولما جاء اليوم التالي، مثلت العصابة بين يدي "المراق". ولما سأل اللصوص حقيقة أمرهم، لم يجدوا بدا من الاعتراف. بجرائمهم، بعد أن كشف أمرهم، وأصبح الإنكار لا يجديهم شيئا. ولما جاء دور الفتى الغريب، عرف "المراق" -من حديثه، ومما سمعه العسس من حوارهم- أنه غريب لا صلة له باللصوص. فأصدر أمره بترئته، بعد أن أمر بزج اللصوص في السجن، حتى ينفذ قضاءه فيهم بعد حين.



الفصل الثاني

١ - "فضل الله"

ثم انتحى "المرامق" بالفتى ناحية، وسأله عن اسمه، فأخبره أنه يسمى: "فضل الله". فقال له "المرامق": "يبدو (أي: يظهر) لي -من منظرك وغبابة زيك (أي: هيئتك)- أنك ضيف قادم على "بغداد"، منذ زمن قليل". فقال له الفتى: "صدقت - يا سيدي- فأنا من سكان "الموصل". وقد وصلت أمس إلى "بغداد"، ولم أرها، قبل ذلك، ولا عرفت فيها أحدا."

٢ - جارية "الموفق"

وقد كاد الجوع يقتلني، فجلست بجوار قصر فاخر لرجل من سراة "بغداد"، اسمه: "السيد الموفق". فمرت بي جارية عجوز من جوارى القصر، ورأت ما يبدو على وجهي من الإعياء (أي: الكلال والتعب) والحياء، فأدركت ما يجول بخاطري.

فرجعت إلى القصر، ثم عادت إلى -بعد قليل- بشيء من الزاد أمسكت به الرمق، أعني: حفظت به ما بقي في جسمي من حياة، بعد أن أشرفت على التلف، وكدت أهلك من الجوع.

٣ - بين المقابر

ولما جاء المساء، لم أجد مكانا آوي إليه غير المقابر. فاضطجعت إلى جانب قبر من القبور، وتوسدت صخرة من الصخور، أي: جعلتها تحت رأسي. فأخذتني سنة خفيفه من النوم، ثم أيقظتني جلبة وضوضاء بالقرب مني، فنهضت مفزعا وجلا، أي: شديد الخوف. وحاولت أن

أهرب، فلقيت أمامي رجلين. فاستوقفاني، وسألاني: من أنا؟ ومن أين أتيت؟.. فقلت لهما: "إنني غريب لا مأوى لي ولا زاد عندي. ولم أجد في المدينة موئلاً، أي: مكاناً ألبأ إليه، فجننت إلى القبور أتلمس النوم فيها". فقال لي أحدهما: "أحمد الله على هذه الفرصة السعيدة، فقد وجدت من يعني بأمرك، ويهيئ لك ما تحتاج إليه من ثياب وطعام".

ثم سارا بي حتى وصلنا إلى قبر كبير فيه جماعة من رفاقهما كانوا يأكلون أشهى ألوان الطعام. فعلمت أنهم لصوص، وأن هذه المقبرة مخبئهم. ثم حقق ظني ما سمعته من مناقشتهم. فقد بدعوا يتحدثون عما سرقوه بفي يومهم، وما اعتزموا سرقة في غدهم، أي: في يومهم التالي.

٤ - غيظ اللصوص

وعرضوا على أن أشركهم في عملهم، واندمج في زمرتهم. فارتبكت وخشيت أن أرفض رأيهم فأغضبهم، وليس في قدرتي أن أوافقهم على السرقة، لأنني رجل شريف، مهما يقس على الزمن فلن أبيع لنفسي أن أكون أفاقاً، أعني: طريداً ضارياً في الآفاق، وصعلوكاً مكتسباً لا موطن له، يذهب في بلاد الدنيا منتقلاً من مكان إلى آخر.

٥ - قدوم العسس

وانعقد لساني فلم أدر كيف أجيبهم. فأعادوا علي السؤال، فاشتد ارتباكاً وفرعياً. وبدأ على وجوههم الغيظ والألم لما رأوه من ترددي وإحجامي.

وإني لكذلك إذا أتاح (أي: هياً) لي الله فرصة نادرة للخلاص من هذا المأزق، أي: المضيق فقد دهمنا العسس، (أي: أحاطوا بنا) - حينئذ - وخلصوني من أذيتهم وشرهم وأتاحوا لي فرصة سعيدة للمثول (أي: الوقوف) بين يديك

٦- فضل الصمت

ولم يكد "المرامق" يستمع إلى قصة "فضل الله" حتى عن له خاطر خبيث، يحقق ما يبتغي من الكيد لخصمه اللدود: "السيد الموفق". وكان من حسن حظه، أعني: من حسن حظ "السيد الموفق"، أن "المرامق" الخبيث قد عرف من قصة "فضل الله" بعضها، وجعل باقيها. لأن "فضل الله" لم يخبره بقصته كلها، بل اجتزأ منها بما يبرئه من تهمة السرقة، ولم يجد حاجة للإفشاء بما لم يسأل عنه، متبعا في ذلك الحكمة الذهبية المأثورة: "إذا كان الكلام من فضة، كان السكوت من ذهب"، مهتديا بقول الشاعر القديم:

"مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

إنما العاقل من أجم فاه بلجمام"

ولو عرف الحاكم قصة "فضل الله" كلها، لما وقعت حوادث هذه القصة العجيبة. ولوقفت عند هذا الحد، وانتهت بتبرئة "فضل الله" من تهمة السرقة. ولو تم ذلك لألحقت بأمثالها من الحوادث والأنباء اليومية التي تسمع أمثالها في الصحف، ثم لا تلبث أن تنساها عقب الانتهاء من قراءتها.

٧- فكرة جريئة

وقد أطال "المرامق" تفكيره حين حدثه "فضل الله" أنه قد جلس أمام قصر "الموفق". ولا عجب في ذلك، فقد أخبرتك في أوائل القصة- بمقدار ما كان يحمله له من حقد وحسد. ثم لمع على أسارير "أبي ثعلبة" بريق عجيب، لو رأيته -أيها الصغير العزيز- لعلمت أنه قد اهتدى إلى فكرة موقفة طال بحثه عنها، أستغفر الله، بل هي فكرة خاطئة غير موقفة، لو أنه عقل لتمني أن يضل عنها، فلا يهتدى إليها أبدا. قال "المرامق" للفتى "فضل الله"، في لهجة تفيض بشرا وحنانا (أي: سرورا ورحمة): "إن للسيد: "الموفق" فتاة معروفة برجاحة العقل، وجمال الخلق. وقد رأيت من حسن أدبك ما أفنعي بكرم عنصرك، وطيب أصلك. ولست أرى أحدا أحق منك بزواجها. فكيف تقول؟"

٨ - دهشة "فضل الله"

فدهش "فضل الله" مما قاله "المرامق"، وعجب من طيبة قلبه، وكذب ما كان يسمعه -من قبل قدومه إلى "بغداد"- من الشوائع (أي: الأخبار الذائعة)، عن لؤم "المرامق" وخبث نيته. وأعجب بذكائه وبعد نظره، لأنه استطاع -بما وهبه الله من فطنة- أن يهتدي إلى سره، ويتعرف ما كان يجول بخاطره.

وقال "فضل الله" في نفسه: "لقد خرجت من بلدي وأنا عازم على الزواج بهذه الفتاة، ولكن قطاع الطريق سبلوني كل ما أملك، ولم يتركوا لي إلا أسمالا، أي: ثيابا خلقة بالية، فخجلت من التوجه إلى أبيها وأنا بهذه الحال المزرية. وكأنما ألهم الله -سبحانه- هذا الرجل الكريم أن يقرأ ما دار بخاطري من الأفكار. فما أسعدني به، وما أعظم توفيقي بلقياه، أي: بلقائه.

وقد شكر "فضل الله" للمرامق صنيعة (أي: معروفة)، وعجب مما رأى. ولم يكن يدور بخاطره حقيقة ما يفكر فيه. وبعد قليل أمر "المرامق" بعض خدمه أن يذهب بالفتى: "فضل الله" إلى الحمام.

٩ - دهاء "المرامق"

ثم بعث إلى "السيد الموفق" يدعوه إلى داره ليفضى إليه بأمر خطير. فجاء "الموفق" على عجل أي: مسرعا. وما كاد "المرامق" يراه، حتى أسرع إلى لقياه. وأقبل عليه يقبله ويعانقه، ويتظاهر بالإخلاص والمودة له. فدهش "السيد الموفق" لما رأى، وعجب من تلك الحفاوة التي لم يألفها من "المرامق". ولم يكن يعرفه طول عمره إلا خصهما لدواد، لا يكف عن إيذائه والكيد له -منذ الطفولة- كلما أمكنته الفرصة. فأدرك "الموفق" أن في الأمر سرا يحاول صاحبه جهده أن يخفيه عنه.

١٠ - مصاهرة الأمير

ولكن صاحبه لم يترك له مجالا للتفكير والشك في أمره. فالتفت إليه قائلا: "لقد أراد الله -يا "أبا حمزة"- ألا يطول أمد عدائنا (أي: زمن عداوتنا)، فأتاح لنا فرصة نادرة نخمد أي: نطفئ فيها شعلة أحقادنا، ونضع حدا لتلك الخصومة التي ابتلى (أي: امتحن) الله بها قلوبنا، وأشقى بها

نفسينا". فسأله: "السيد الموفق": "وماذا جد عندك من الأنبياء أي: الأخبار؟" فقال له "المرامق" في لهجة خبيثه، وهو يتظاهر بالجد والإخلاص:

"لقد وفد على أمس، الأمير "فضل الله" أمير "الموصل"، وحل في ضيافتي، وهو عازم على الزواج بابنتك، التي اشتهر جمالها وفضلها وذكاؤها في جميع الآفاق. ولم يكد يفاتحني في ذلك، حتى رأيت الفرصة سانحة لاستجلاب الود والصفاء بيننا، وإحلال المحبة والولاء، محل القطيعة والجفاء".

١١ - فرح "الموفق"

فقال له "السيد الموفق"، وقد امتلأت نفسه بهجة وحبورا بهذه البشرى السعيدة: "شد ما أدهشني هذا النبأ السار. فإن من العجيب حقا أن يفكر أمير "الموصل" في الزواج بابنتي "زمرد"، وأن يجيء هذا الخير العميم على يديك أنت، بعد أن وقفت حياتك كلها على الإساءة إلى والإضرار بي". فقال "المرامق": "لا حاجة إلى استناره الأحقاد ونبش ذكريات الماضي المؤلمة يا "أبا حمزة". فليس يخلق بكريم مثلك أن يذكر الإساءة، بعد أن سنحت الفرصة للتفكير عنها. وسيكون زواج الأمير بابنتك فاتحة عهد الصداقة والإخاء الجديد بيننا، وخاتمة عهد المشاكسة البائد الذي البائد الذي لا عودة له ولا رجعة، إن شاء الله. وما أحسن أن نغتنم هذه المناسبة السعيدة فنتعاهد على المودة والإخاء، ونقسم على المحبة والوفاء". وكان "السيد الموفق" طيب القلب، فانخدع بكلام "المرامق"، ونسى قديم حسده له، وسابق حقه عليه، فقام يعانقه ويعاهده مخلصا على الصفاء.

١٢ - لقاء الأمير

ولما عاد "فضل الله" من الحمام أدخله الخادم غرفة الاستقبال بعد أن ألبسه أفخر الثياب. وما كاد يراه "المرامق" حتى صاح متظاهرا بالفرح والسرور: "على الرحب والسعة قدمت (أي: جئت) أيها الأمير الكريم. لقد شرفت بك "بغداد"، وأعليت من قدر داري، بعد أن تنزلت فرضيتها دارا لك ومقاما. ولقد -والله- أعجزتني عن أن أشكر لك هذا الشرف العظيم الذي أوليتني. وليس فرح "السيد الموفق" بأقل من فرحي بمقدمك السعيد. وقد عد رغبتك في الزواج

بابنته شرفا لا يدانيه شرف. ورأى في مصاهرة الأمير: "فضل الله" فرصة له عزيزة المنال". فقام "السيد الموفق" يشكر للأمير "فضل الله" أن تنزله بقبول ابنته زوجا له، وقال له فيما قال؛ "شد ما أخلتني يا سيدي الأمير - وملأت نفسي فرحا وسرورا بهذا الشرف الذي تفضلت به علي، إذا طلبت الزواج بابنتي. ولن ننسى لك طول حياتنا - هذا الصنيع". فتخير "فضل الله"، ولم يدر: كيف يقول؟ وانعقد لسانه عن الكلام، فاكتفى برد تحية "السيد الموفق". وخشى "المرامق" أن يظهر الاضطراب على صاحبه، فירתاب "الموفق" فيما حدثه به.

١٣ - زواج الأمير

فالتفت "المرامق" إلي "فضل الله" قائلا:

"أرجو أن تضيف إلي أفضالك الجميلة يا سيدي الأمير - فضلا جديدا، فتقبل أن يتم عقد زواجك في داري". ولم ينتظر "المرامق" موافقة أحد، بل أسرع - من فوره - فأمر غلماناه بإحضار الشهود. ثم كتب بيده عقد الزواج، وتلاه - بعد كتابته - على الشهود الذين أحضرهم.

ثم التفت إلي "السيد الموفق" باسماء وقال:

"لقد أتم الله نعمته عليك يا "أبا حمزة". فاذهب مع صهرك الأمير إلي بيتك، وأنعم بهذا الشرف العظيم الذي ساقه الله إليك، فأنت جدير به، أي: مستحق له."

فشكر له كلاهما صنيعه أي: معروفة، وخرجا من بيته، وركبا بغلين فاخرين كانا في انتظارهما، ثم ودعا "أبا ثعلبة المرامق"، وما زالوا سائرين حتى بلغنا القصر.

١٤ - بنت "الموفق"

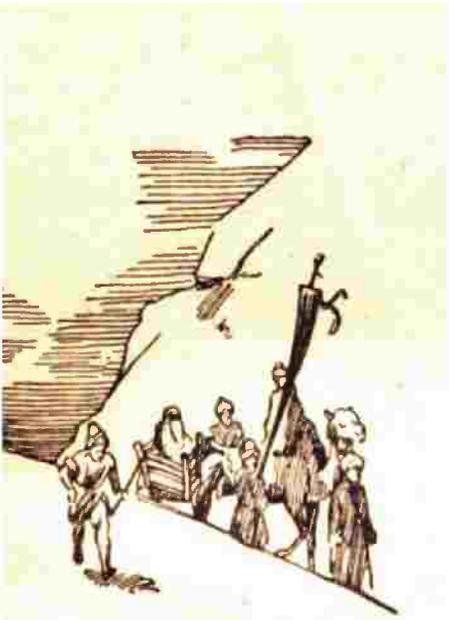
ثم صعدا إلى غرفة الاستقبال،

واستدعى "السيد الموفق" ابنته،

وأخبرها بما تم، فأقرت أباها على

ما فعل. وعلم كل من في القصر بزواج: "زمرد"

بنت "أبي حمزة الموفق"



بالأمير "فضل الله"، فاستولى عليهم الفرح والسرور.

وقد ابتهج العروسان، وحمدا لله -سبحانه- على ما كتب لهما من توفيق. فقد رأى كل منهما في شمائل صاحبه وحديثه مثالا رائعا لرجاحة العقل، وكمال الخلق، وسعة الأفق، فشكرا لله ما يسره لهما من سعادة وتوفيق.



الفصل الثالث

١ - هدية "المرامق"

وما كادت تشرق شمس اليوم التالي حتى سمعا طرقا بالبواب. فذهب "فضل الله" ليتعرف من الطارق؟ فرأى زنجريا مديد القامة (أي: طويل القد) يحمل ربطة (أي: ملاءة) كبيرة، فيها ثياب. فتوهم "فضل الله" أن "المرامق" أرسله إليه بهدية يعبر بها عن سروره وتهنئته بزواجه السعيد الذي تم على يديه. ولكن فرح الفتى لم يطل. فقد فاجأه الزنجي أسوأ مفاجأة، حين قال له، في لهجة الشامت الساخر:

"إن سيدي يحييك، ويتمنى لك التوفيق والسعادة في زواجك، ويطلب منك أن ترد له الثياب الفاخرة التي استعرتها منه -أمس- لتظهر بمظهر أمير "الموصل". وها هي ذي أسمالك (أي: ثيابك القديمة البالية) قد بعثها إليك سيدي "أبو ثعلبة" لتظهر -أمام سادتك- بمظهرك الحقيقي، فلا يخذعوا فيك بعد اليوم"

٢ - دهشة "زمرد"

فاشتدت دهشة "فضل الله" لهذه المفاجأة، وأدرك -في الحال- خبث "المرامق" ودهاءه. ولم ير بدا من الإذعان (أعني: لم يجد مفرًا من الخضوع) لقضاء الله وقدره. فخلع ما عليه من الثياب، ورد إلى الزنجي أثواب مولاه. ثم ارتدى ثيابه الخلقة، وهو حائر في أمره، لا يدري ماذا يصنع؟ ولا يعرف كيف يقول؟ وكانت زوجته "زمرد" تصغى إلى الحوار، أي: تميل بسمعها نحو المناقشة. فلما رأت زوجها يرتدي الأسمال، أي: يلبس الثياب البالية، قالت متعجبة حائرة:

"يا لله! ماذا حدث؟ وأي كارثة (أي: مصيبة) حلت بنا؟ وبماذا حدثك الزنجي؟"



٣ - أمير "الموصل"

فقال لها زوجها، وقد عادت إلى نفسه الطمأنينة والثقة: "لقد كشف الله لي خبث هذا الرجل وسوء نيته، ولكن الله - سبحانه - أبي إلا أن يرجع إليه السهم الذي سدده إلى، ويرد كيده في نحر، والنحر: أعلى الصدر. فقد سولت (أي: زينت) له نفسه أن يزوجك برجل فقير أفاق، رغبته في الكيد لأبيك والانتقام منه. وقد خدع في منظري - حين رأي مع جماعة من اللصوص - فحسبني طلبته. وكنت - لحسن حظي - قد كتمت حقيقة أمري عنه، وحجبت سري دونه. فقد قلت له إنني من "الموصل"، ولكنني لم أقل له: إنني أميرها، وولي عهدها، وريث ملكها. وقد كنت أعجب كيف فطن إلى حقيقتي من غير أن أخبره بها؟ وقد استولت الدهشة على - حينئذ - فلم أدر: كيف عرف أنني لم أسافر من "الموصل" إلى "بغداد" إلا لأتزوج بنت "أبي حمزة الموفق"؟ ولم أعلم كيف أدرك - من ملامحي - أنني أمير؟

فالآن زال عني العجب وانجلي اللبس أي: الإشكال، وعرفت أنه اختلق لي (أي: كذب علي وافتري) هذه الإمارة، وهو يحسبني أفاقا متعطلا، أو صعلوكا متبطلا. ولقد خيل إليه أنه قد نجح في تدبير مؤامرتة ليوقعكم في أخبولته أي: شبكته. وأبى الله إلا أن يخيب ظنه، ويحبط كيده أي: يبطله، فقسم لك الزواج بأمير أصيل في الإمارة، هو أمير "الموصل": وولي عهدها".

٤ - ثياب الإمارة

ثم قص عليها "فضل الله" قصته كلها ولم يكذب ينتهي منها حتى تهلل وجه عروسه، وأشرقت أساريرها أي: خطوط وجهها، ثم قالت له:

"لقد رأيت من نبل أخلاقك - أيها الأمير - ما أقنعني بكرم أصلك. ولن يكون - إن شاء الله - إلا ما يسرك. فلا تجزع مما حدث، ولا تحزن مما فعله ذلك المسيء الحاقد. فإن الله لا يهدى كيد الخائنين".

فشكر لها الأمير "فضل الله" بعد نظرها، وأصالة رأيها. وأسرعت "زمرد" فنادت إحدى جواريتها، وأمرتها أن تذهب من فورها (أي: للحال) إلى السوق، لتشتري منها ثيابا فاخرة للأمير. ولم يمض زمن يسير حتى عادت الجارية ومعها أكسية فاخرة، وحلل ثمين، جديدة بأمير مثله فارتداء الأمير، فعاد إليه رواؤه (أي: حسن منظره) وبهاؤهن بأحسن مما كان بالأمس.

٥ - وعيد "زمر"

فقلت "زمر" ضاحكة مستبشرة: "تري كيف يكون شعور "المرامق" الآن؟ لقد حسب أنه أوقعنا في أحبولته (أي: شبكته)، ولم يعلم أن قد هيا لنا سعادة لم تكن لتيسر لنا لولاه! لقد أراد أن يزوج بنت "أبي حمزة الموفق" بلص أفاق، فخبب الله أمله، وأنقذها من كيده، فزوجها بأمير جليل، من سلالة عريقة (أي: من نسل أصيل) في الإمارة والملك، ولا يجيق المكر السيء إلا بأهله. على أنني سأعرف كيف انتقم منه انتقاما لا ينساه إلى الأبد، وأعاقبه عقابا لا يخطر له على بال، ليكون له في ذلك درس بليغ يردعه (أي: يرده) عن الكيد الناس، فيكف عن خداعهم والمكر بهم". وحاول الأمير أن يرجعها عن عزمها على الانتقام من "المرامق"، فذهبت جهوده أدرج الرياح. ثم حاول أن يتعرف منها ما دبرته لخصمها من كيد، فلم تخبره بشيء من سرها.

٦ - انتقام باطش

ولقد صدقت "زمر" وعيدها (أي: كانت صادقة في التهديد والتخويف)، وكان انتقامها من خصمها وخصم أبيها عنيفا باطشا (أي: متناهيا في الشدة). فقد اعتزمت أن تجعله مضغة في أفواه الناس -من خاصة وعامة- ينفكهن بها، وترويهما الأخلاف عن الأسلاف (أي: الأبناء عن الآباء). فتم لها ما أرادت، على الرغم من رجاء الأمير: "فضل الله"، الذي كان لا يحب الانتقام، ولا يرضى مقابلة الإساءة -مهما عظمت- بغير الإحسان والصفح والغفران.



الفصل الرابع

١ - في ديوان "المرامق"

وفي اليوم التالي خرجت "زمرد" بعد أن ارتدت ثيابها، وأسدلت على وجهها قناعها (أي: البرقع الذي تستر به وجهها)، واستأذنت -في الخروج- زوجها. ومازالت تسرعه خطاها، حتى بلغت ديوان "المرامق"، فوقفت بحيث يراها.

وما كادت تقع عليها عيناه، حتى بعث رسولا إليها يسألها عن سبب قدمها، فأخبرت رسوله أنها تريد أن تسر أمرا خطيرا إلى سيده "أبي ثعلبة"، أي: تحدثه به سرا.

٢ - بين أرنب وثعلب

فذهب "المرامق" إلى الحجرة الأخرى، وأرسل في طلبها. فلما مثلث (أي: وقفت) بين يديه، حنت رأسها، متظاهرة بإجلاله واحترامه، فأمرها بالجلوس على أريكة مجاورة. ثم رفعت قناعها، وقالت بعد أن أذن لها في الحديث:

"لقد نمت ليلة أمس يا "أبا ثعلبة"- وأنا مشغولة بما أنا فيه من سوء الحظ. فرأيت -في المنام- حلما عجيبا: رأيت ضبا يتكلم، وقد وفد عليه أرنب وثعلب. وعلمت من حديثهما أن الأرنب النقطة تمررة. ولم تكذبظفر بها، حتى احتال عليها الثعلب فخطفها منها. ولم يكذب الثعلب يخطفها، حتى نشب الخلاف بينه وبين الأرنب."

٣- بيت الضب

ثم اجتمع رأياهما على الذهاب إلى بيت "أبي الحسل" - وهو الضب- بعد أن تعاهدا على الرضى بما ينتهي إليه قضاؤه وحكمه. فلما بلغا بيت الضب، سمعت حوارا طريفا، ما أظنني سمعت أعجب منه.

قالت الأرنب منادية: "يا أبا الحسل"

فقال الضب: "سميعا دعوت".

قالت الأرنب: "أتيناك لنحتكم"

فقال الضب: "عادلا حكمت".

قالت الأرنب: "فاخرج إلينا".

فقال الضب: "في بيته يؤتي الحكم" (يعني: أن القاضي لا ينتقل إلى دار المختصمين، بل هم الذين ينتقلون إلى داره ليحكم بينهم).

قالت الأرنب: "إني وجدت ثمرة".

فقال الضب: "حلوة فكليها".

قالت الأرنب: "فاختلسها الثعلب، أي: استلبها".

فقال الضب: "لنفسه بغى الحير، أي: طلبه".

قالت الأرنب: "قلطمته".

فقال الضب: "بحقك أخذت".

قالت الأرنب: "قلطمني"

فقال الضب: "حر انتصب لنفسه".

قالت الأرنب: "قاقض بيننا".

فقال الضب: "قد قضيت"

فذهب الثعلب والأرنب راضيين بحكمه.

٤ - حوار الضب

وهذه قصة حفظتها في المدرسة فلي زمن الطفولة، وكنت شديدة الإعجاب بها. ولكن إعجابي قد اشتد حين تمثلت لي في المنام، كأنها حقيقة راهنة أي: دائمة ثابتة. وازدادت لها تقديرا حين رأيت -بعيني رأسي- شخوص هذه الأسطورة يتكلمون ويتحاورون أي: يتناقشون. وأبصرت الضب يقضي بين الأرنب والثعلب، وقد ظهر لي "أبو الحسل" (أي: الضب) في صورة عجيبة: جسم ضب ركب في رأسه وجه إنسان ولسان إنسان. فتوجهت لأبي الحسل، أحاوره (أي: أناقشه) كما حاورته الأرنب منادية:

- يا أبا الحسل!
- لبيك يا كريمة الأصل.
- باكية جئتك متألمة.
- بل شاكية قدمت متظلمة.
- أتتصت إلي قصتي؟
- عرفتها يا بنيتي!
- كيف، وما رويتها؟
- عرفتها، عرفتها، كأنني رأيتها!
- من قبل أن أقصها؟



- نصها، وفصها!
- فبماذا تقضي فيها؟
- أتركها إلى قاضها.
- أي قاض عنيت، وبحكمه ارتضيت؟
- رجل من أهل الرشاد، هو حاكم "بغداد". العدل سجيته، و "أبو ثعلبة" كنيته، والصواب حكمه، و "زياد" اسمه فتوجهي إليه، وقصى شكواك عليه.

٥- أذان الفجر

وهمت أن أتحدى في الحوار (أي: أردت أن أستمر في المناقشة) وإذا بصوت المؤذن يجلجل (أي: يسمع شديدا عاليا، في الفضاء، مؤذنا (أي: معلما ومخبرا) بالفجر فاستيقظت من نومي مستبشرة مسرورة، وقد أيقنت أنني أدركت بغيتي، وظفرت بطلبتي، أي: نلت ما أريده وابتغيته، وبلغت ما أطلبه وأرتجيه).

٦- نصير المظلوم

فتهلل "المرامق" (أي: تالأ وجهه فرحا وسرورا)، وامتألت نفسه إعجابا برجاحة عقلها، وحسن أدبها، وبلاغة تعبيرها، وفصاحة بيانها، وطلاقة لسانها. فقال لها: "يسعدني أن أنصفك أيتها الفتاة الراشدة الكريمة."

٧- شكوى "زمر"

فقال "زمر": "لقد جنئت ألتمس (أي: أطلب) من مولاي "أبي ثعلبة" أن يعيد العدل إلى نصابه (أي: يرجعه إلى أصله)، ويرفع عني ما حاق بي من الجور، أي: ما أحاط بي واشتمل على من الظلم. ولا عجب في ذلك فإن على أيدي العادلين من أمثال سيدي: "أبي ثعلبة" القليلين، يعلو الحق، وينهزم الباطل، وينتصف المظلوم من الظالم."

فقال لها "المرامق": "أمظلومة أنت يا بنيتي؟ فلا -والله- لن أدخ وسعا (أي: لن أترك جهدا) في رفع ظلامتك. فحدثيني بقصتك."

٨ - مجمع الأمراض

فقال له: "إذا زعم إنسان، أي: إذا تحدث حديثاً مشكوكاً في صحته: أنني عوراء، أو صلعاء (أي: ليس في مقدم رأسي شعر، أو قال: إنني دميمة السحنة أي: قبيحة الوجه، أو بكماء (أي: خرساء)، أو بخراء (أي: منتنة الفم)، أو كتعاء، والكتعاء هي من رجعت أصابعها إلى كفها، وظهرت مفاصل أصابعها، أو شلاء، أو مقعدة، وهي التي أصابها داء في جسدها فأعجزها عن المشي، أو وكعاء، وهي التي التوت إبهام رجلها فأقبلت على السبابة حتى يرى أصلها خارجاً كالعقدة، أو حدباء، وهي التي خرج ظهرها ودخل صدرها وبطنها، أو مورمة الجسم، أو جرياء، أي: مصابه بالجرب، فهل تراه (أي: تظنه) أنصفي فيما زعم، أم تراه كذب علي وافترى؟"

٩ - على نهر "دجلة"

فقال لها: "ما رأيت في حياتي كلها أكمل منك أدباً، ولا أحسن خلقاً (أي: خلقة) وخلقاً (أي: طبعاً وعادة). فخبيريني من تقصدين؟ وممن تشكين؟"

فقالت: "فكيف تحكم يا -أبا ثعلبة- إذا قلت لك: إن أبي هو الذي يشيع عني هذه الشوائع أي: يديع هذه الأخبار. لعل له في ذلك حكمة أجهلها، فما علمته يسعى لغير إسعادي. وما كان ليخطر ببالي أن أتحدث بما تحدثت به إليك، لولا ذلك المنام العجيب الذي قصصته عليك". فقال "المرامق": "ألا تخبريني باسم أبيك وصناعته وعنوانه؟"

فقال: "نعم يا سيدي"، فهو "أبي نصر عمر الصباغ" وبيته معروف على الضفة الشرقية (أي: الجانب الشرقي لنهر "دجلة").

فقال "المرامق": "عودي -إذا شئت- يا سيدي إلى بيتك فلن ترى إلا ما يسرك."



١٠ - حوار الزوجين

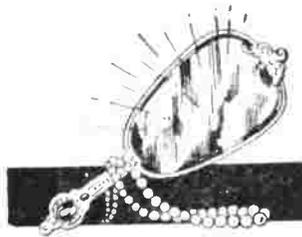
فشكرت "زمرّد" للمرّامق عطفه، ولثّمت يده (أي: قبلتها)، وأسدلت قناعها (أي: أرخت برقعها على وجهها)، وخرجت من الغرفة، عائدة -في طريقها- إلى بيتها.
ثم قصت على زوجها كل ما فعلته، وختمت حديثها قائلة:

"لقد رددنا إلى "المرّامق" سهمه الذي سدده إلينا. لقد انتمر بنا ليجعلنا سخريّة الناس أجمعين، فتردى (أي: سقط) في مثل البئر التي أراد أن يحفرها لنا".

ودارت محاورّة (أي: مناقشة) طويلة بين الزوجين، فقد كان الأمير "فضل الله" يرى دائماً، أن التّجاوز (أي: الصّفح) عن الإساءة خير من مقابلتها بمثلها. أمّا "زمرّد" فكانت -على عكس مما يراه الأمير- نرى في معاقبة الجناة (أي: المجرمين) وقصاصهم (أي: جزائهم وعقابهم) خير وسيلة لتأديبهم وتخويف من تسول (أي: تزين) له نفسه أي يقلدهم. كما ترى أن من واجب القادرين ألا يتهاونوا في زجر الأشقياء والضرب على أيديهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فإنهم -إذا أفلتوا من القصاص- عاثوا (أي: أفسدوا) في الأرض.

وقد ختمت حوارها مع زوجها بالحديث المأثور:

"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".



الفصل الخامس

١ - فزع وطمأنينة

أما "المرامق" فقد رأى في تلك الفتاة البارعة الفصيحة الراجحة العقل مثلاً كاملاً للزوج الفاضلة التي كان ينشدها (أي: يطلبها) ويتمناها.

فأرسل يستدعي "عمر الصباغ" إليه. وما كاد "الصباغ" يرى رسول "المرامق" حتى امتنع وجهه، أي: تغير لونه، وحسب أن أحد أعدائه قد شكاه إلى الحاكم. فذهب يتوجس شراً، أي: أحس صوتاً خفياً يهجس في نفسه بالضرر. وما كاد يصل، حتى هس "المرامق" به وبش (أي: خف إليه وارتاح)، وأدناه (أي: قربه) من مجلسه، واستولت عليه البهجة (أي: تملكه الفرح) بلقائه.

٢ - سبب الحفاوة

فعجب "الصباغ" مما رأى من بشاشة "المرامق" وحفاوته به، أي: مبالغته في إكرامه وإطافه والعناية به. ولم يدر لهذا التكريم سبباً، وظهر الارتباك على وجهه. ثم قال له "المرامق": "إني لسعيد الحظ إذ أراك يا "أبا نصر"، فقد سمعت عنك ثناء مستطاباً. وقد استفاضت بين الناس شهرتك بالاستقامة والورع (أي: التفوق والصلاح)."

فأجابه "الصباغ": "أشكر لسيدي "أبي ثعلبة" حسن رأيه في، وثناءه علي، كما أشكر له أنه أتاح لي هذه الفرصة السعيدة للقياء والتعرف به. فليس في الدنيا سرور أعظم من التعرف إلى الكبراء الصالحين، والأتقياء البررة من أمثال مولاي."

٣ - الفتاة التاسعة

فقال "المراقق": "لقد علمت أن لك بنتا لما تتزوج."

فقال له "الصباغ": "لست أكذبك القول -يا سيدي "أبا ثعلبة"- فإن بنتي قد أربت سنها (أي: زاد عمرها) على الثلاثين عاما. ولكنها مخلوقة تاعسة لا تصلح للزواج، لأنها عوراء، صماء، بكماء، حدباء، شوهاء، دميمة الخلفة، جرياء، مقعدة (أي: عاجزة عن المشي) وهي - على ذلك- سلاء. وقد جمع الله فيها من العيوب الجسمية، ما لو وزع على مائة واحدة لشوه حسنهن (أي: قبح جمالهن)، وأصبح كافيا للتفجير منهن، أي: لجعل من يراهن يتباعد عنهن."

٤ - حديث المخدوع

فقال "المراقق" مبتسما: "مرحى! مرحى! يا "أبا نصر"، فإنك لم تعد ما في نفسي. فقد كنت على يقين من أنك لن تتمدح بجمال ابنتك، ولن تصفها بغير ما وصفت، لبعذك عن الخيلاء (أي: الزهو). ولكن اعلم يا صاحبي أن هناك رجلا يريد أن يتزوج بهذه الفتاة التاسعة الجرياء، المقعدة الشوهاء، الثلاء العوراء الصماء. وأنه مصر على ذلك بالعة ما بلغت بنتك من الدمامة والقبح والتشويه."

فعجب "الصباغ" مما سمع، وقال له: "ومن هو هذا الرجل -يا سيدي "أبا ثعلبة"- فإنني شديد الشوق إلى التعرف به". فقال له "المراقق": "يسرني أن أخبرك أن ذلك الرجل هو محدثك."

٥ - حيرة "الصباغ"

وهنا اشتدت حيرة "الصباغ" وزاد ارتباكاه، ثم حدق (أي: سدد نظرة) في وجه الحاكم، ويرق عينيه (أعني: وسعهما وأحد النظر) وهو يحسبه هازلا غير جاد، وقال له وهو لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه: "لا ضير أن يمزح سيدي ما شاء أن يمزح، وأن يمعن في السخرية من ابنتي، مادام يجد في ذلك دعاية له وتسلية."

فقال له "المراقق": "كلا! كلا! فما خطرت لي الدعاية (أي: المزاح) على بال. وما كنت لأداعبك (أي: أمزح معك) أو أسخر منك (أي: أهزأ بك) أو أتظاهر بما لا أعتقده. لقد عزمت

على الزواج بابنتك. أفهمت ما أقول؟ عزت على ذلك عزما لا تردد فيه ولا هواده. فهل تسمع؟ عزمت ولا سبيل إلى العدول (أي: الرجوع) عن رأيي، ولن يثني عن عزمي كائن كان". فلما يتمالك "الصباغ" أن فهقة ضاحكا، وقال للمرامق:

"أقسم بالله وبأنبيائه ورسله وكتبه واليوم الآخر (يعني: يوم القيامة) إن ابنتي مقعدة، شوهاء، شلاء، بكماء، صماء، وإنما إلى ذلك صلعاء، عوراء، حدباء، وإنما قد جمعت من صنوف القبح، وألوان الدمامة، ما لم تقع على مثله عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على بال مخيل".

فقال "المرامق"، وقد حسب أن "الصباغ" يخدعه: "لقد عرفت عنها كل هذه الصفات: وعلمت من دمامتها وقبح وجهها وتشويه جسمها أكثر مما رويته لي، وحدثتني به، وقصصته علي. ومن العجيب أنني لا أتمنى الزواج بفتاة إلا إذا اكتملت لها أسباب الدمامة، واجتمعت لها وسائل التشويه والقبح. وقد بحثت طول عمري - عن واحدة تجتمع لها كل هذه الصفات، فلم أعر عليها إلا اليوم. فعلمت أن أمييتي تحققت ورغبتني تمت. فلا تعجب مما تسمع، فلناس فيما يعشقون مذاهب".

٦ - بنت "الصباغ"

فزاد عجب "الصباغ"، واشتدت حيرته مما سمع، وقال مرتبكا: "أقسم لك جهد أيماي (أي: مبالغا في اليمين، باذلا جهدي في القسم): إنني صادق فيما وصفت به ابنتي، وإن دهشتي مما رزقها الله من صنوف الدمامة والتشويه لا يعدلها (أي: لا يساويها) إلا دهشتي من رغبة مثلك في مثلها، وإصرارك على الزواج بها. أقسم لك - والله يعلم أنني صادق فيما أقول - إنني لم أكذبك شيئا مما حدثتك به. وحسبك أن تعلم أن اسمها: "عفريت النهار". وليس يجوز لمثلي أن يغر (أي: يخدع) أحدا أو يغرر به، أي: يعرضه للهلاك".

فقال الحاكم، وقد نفذ (أي: فرغ) صبره، واشتد به الغضب، حتى أخرجه عن وقاره (أي: حلمه ورزاقته): "مه أيها الرجل (أي: اكفف عن الحديث)، فقد أضجرتني بثرثرة لا طائل تحتها، ولا فائدة منها. لقد عدت نيتي (أي: تفكري في الأمر)، ولقد أقسمت لأنفذن مشيئتي، ولن أرضي عنها بديلا. فقد اخترتها أيا كانت، وبالغة ما بلغت من الدمامة والتشويه. فأقصر (أي: كف وامتنع) عن مكابرتك وعنادك. وحسبك ما ألصقته بالفتاة من قبيح الأوصاف والنعوت. قلت لك أنني لن أعدل عن الزواج بعفريت النهار، فكيف تقول؟"

٧- حيلة بارعة

ولما رأى "الصباغ" إصرار "المرامق" وتشبثه برأيه، أدرك أن في الأمر حيلة، وقدر أن بعض خصوم "المرامق" وأعدائه ممن ألحق بهم الأذى - وهم كثيرون - أراد أن يتلهمى (أي: يتسلى) به وينتقم منه. فزين له الزواج بعفريت النهار، بعد أن مثلها له في أحسن صورة: ذكاء، وعلم، وفصاحة لسبان، وجمال خلق وخلق. ولم يشك "الصباغ" في أن "المرامق" قد انخدع في حقيقتها، وأن خادعة كان ماهرا بارع الحيلة لبقا، أي: حاذقا رفيقا بما يعمله.

٨- مهر العروس

ورأى "الصباغ" أن ينتهز الفرصة، فهي - بلا شك - فرصة لا تسنح (أي: لا تعرض) في العمر كله إلا مرة واحدة، فإذا ضاعت، ضاعت إلى الأبد. فاشتط في طلب المهر: ألف دينار معجلة، ومثلها مؤخرة. فأعطاه "المرامق" ما طلب من المهر كاملا على فداخته (أي: على ثقله وكثرتة). ولما تمت صيغة العقد أبي "الصباغ" أن يمضيه إلا إذا أحضر الحاكم مائة من سراة الدولة (أي: أشرفها) وأعيانها ووجهاتها وأولى الأمر فيها، ليشهدوا بما رأوا وسمعوا.

٩- شهود العقد

فعجب "المرامق" من تشكك "الصباغ" وارتيابه وأحضر له جمهورا كبيرا من العلماء والفقهاء والأعيان يربو (أي: يزيد) على مائة. ولما اكتمل المجلس قال "الصباغ": "هل يأذن لي سيدي الحاكم أن أشهد الحاضرين على أنني لم أقبل أن أزوج ابنتي إلا بعد أن رأيت إصرارك على رأيك؟ وأنني لم أذعن لمشيئتك إلا بعد أن بيئت من مقاومة إرادتك؟ وهل يأذن لي سيدي في أنها أشهد هذا الجمع الحافل بأعيان الدولة وسراة المدينة أنني لم أقصر في إخبارك أن ابنتي مثال للتشويه والدمامة (أي: القباحة)؟ فإذا أصررت على البناء (أي: على الزواج) بها ثم ظهر لك من عيوبها ما حذرتك، فلم تطق البقاء معها، فلن أمكنك من تركها والخلص منها، إلا إذا دفعت لها ألف دينار أخرى من الذهب تعويضا لها، وهو المبلغ الذي اتفقنا على أن يكون مؤخر صداقها (أي: مهرها)".

١٠ - ليلة العرس

فقال "المرامق" وقد نفذ صبره من ثرثرة "الصباغ":

"اللهم إنني قبلت، اللهم إنني رضيت. قبلت ورضيت فليشهد الحاضرون وليبلغوا الغائبين، أنني قبلت زواج بنت "عمر الصباغ" بالغة ما بلغت من الدمامة والتنشويه، كما قبلت أن أدفع له -عن طيب خاطر- ألف دينار ذهباً مهراً لها وألف دينار أخرى إذا فكرت في فراقها. فهل يرضيك هذا؟" فقال "الصباغ": "الآن قد هدأ بالي، وارتاح خاطري واطمأن ضميري. وستحضر إليك عروسك بعد قليل."

ثم استأذن "الصباغ" في الانصراف، كما استأذنه سائر الحاضرين. ولبت "المرامق" ينتظر عروسه بفارغ الصبر، وهو يعد الدقائق والثواني، فيخيل إليه أن كل دقيقة تمر كأنها يوم، وأن كل ساعة تنقضي كأنها شهر

١١ - قدوم العروس

وجلس "المرامق" تتمثل له عروسه التي رآها في الصباح، ويصور لنفسه أنها قد أصبحت سيدة بيته وشريكته في الحياة. ويحمد الله على أن منحته -بعد الصبر الطويل- فتاة كاملة الفضل، راجحة العقل، فصيحة اللسان، بارعة البيان.

ثم أمر إحدى جواري قصره أن تطلق البخور في غرفته الاستقبال احتفاء بمقدمتها.

وطال به الانتظار فأرسل الزنجي إلى بيت "الصباغ" ليستحثه (أي: ليتعجله) على الإسراع، كما استحثه -أمس- على الإسراع بإحضار الثياب التي وهبها للأمير "فضل الله". وبعد زمن يسير سمع الحاكم جلبة (أي: أصواتا) وضوضاء، ورأى حملاً يحمل صندوقاً من الخشب ويصعد به إلى غرفة الاستقبال. فسأله الحاكم مدهوشاً: "ماذا تحمل أيها الرجل؟"



فوضع الحمال الصندوق، أمامه، ثم قال: "أحمل عروس مولاي الحاكم. فإذا شئت -يا سيدي- رفعت الستر عنها لترى العروس التي اخترتها وفضلتها على نساء المدينة جميعا".

١٢ - عفريت النهار

ولا تسل عن دهشة "المراق" وحيرته وذعره حين رفع الستر، فرأى أشنع ما رآته عيناى، وأقبح ما سمعت به أذنان وأبصر أمامه طفلة عجوزا، لا يزيد طولها كله على متر، ولا يقل طوله وجهها وحده عن نصف جسمها، إن لم يزد عليه. وقد شوه الجرب وجهها وجسمها أشنع تشويه. فغارت عيناها، وظهر أحمرارها، وتورم أنفها، وتبدي يه فم تمساح. ما أصدق من سماها: "عفريت النهار".

١٣ - فزع "المراق"

وهال الحاكم ما رأى، فلم يكذ يصدق ما تبصره عيناى. فأسرع بإسدال الستر عليها، وصرخ في الحال قائلا: "أي حيوان فظيع هذا الذي تحمله إلي؟ أترى عروسي لا تحب أن تتسلى بغير هذا المخلوق العجيب؟"

فقال له الحمال: "كلا، يا سيدي. ليست هذه لعبة لعروسك -كما تخيلت- بل هي عروسك نفسها، هي بنت "الصباغ"، هي "عفريت النهار"، وليس للصباغ بنت سواها".



فصاح "المرامق" متألماً: "يا الله، وكيف يخطر بالبال أن يتزوج أحد مثل هذا الحيوان البشع، الذي جمع من فنون التشويه وصنوف الدمامة ما لا يدور بخاطر إنسان".

١٤ - والد العروس

وكان "الصباغ" واثقا من دهشته "المرامق" ونفوره (أي: تجافيه وتباعده) وفزعه، متى رأى العين. فأقبل "الصباغ" في أثر "عفريت النهار". ولم يكد "المرامق" يرى صهره حتى ثار ثائرة (أي: اشتد غضبه)، وقال له وهو يكاد ينشق من الغيظ:

"كيف تخدعني -أيها الشقي- وتستهين بغضبي؟ وكيف سولت (أي: زينت) لك نفسك أن تبعث إلى بهذا الحيوان الفظيع ثم تزعم أنه ابنتك؟

أما والله لئن أصررت (أي: أقمت ودمت) على عنادك وخبثك ولم تبعث إلى بابنتك الحسنة - التي رأيتها في هذا الصباح - لاعدنك أشد العذاب، ولأذيقنك من ألوان الشقاء البريح ما لا قبل لأحد باحتماله.

فقال له "الصباغ": "أتوسل إليك -يا مولاي- أن تخفف من غضبك علي..، فليس لي بنت غير هذه الشوهاء التي تراها. وقد أقسمت لك -من قبل- جهد أيماي: إنني ابنتي غاية في الدمامة، وآية في القباحة. فلم تسمع إلي، وأبيت إلا الزواج بها. فأي لوم علي في ذلك؟ وتقول يا سيدي: إن ابنتي حضرت إليك في هذا الصباح، فكيف كان ذلك؟ كيف حضرت إليك وهي -كما ترى- مقعدة لا تستطيع السير؟"

١٥ - عودة العروس

ولما سمع "المرامق" كلام الصباغ أدرك نثيشا (أي: بعد فوات الوقت) أن في الأمر سرا خفيا، وعرف أن بعض خصومه قد اتتمر به، لم ير حيلة أبلغ من هذه للانتقام منه. فأطرق برأسه مليا، وقد كاد الغيظ يقتله، ثم قال للصباغ:

"لقد نفذ قضاء الله، ولا حيلة لأحد في رد القضاء، ودفع البلاء. فارجع بيننا إلى بيتك، وحسبك ما ظفرت به من غم، وما ألحقته بي من غرم."

فلم ينبس "الصباغ" ببنت شفة (أي: لم ينطق بكلمة)، وانصرف ومعه الحمال يحمل ابنته "عفريت النهار" إلى بيته.



خاتمة القصة

١ - بين يدي الخليفة

وسرعان ما ذاعت قصة "عفريت النهار" في مدينة "بغداد"، وظلت ردحا من الزمن فكاهاة الناس في أحاديثهم وأسماهم. وقد فرح الأهلون بما أصاب الحاكم الذي عم شره وأذاه كل من أوقعه سوء الحظ في شراكه.

* * *

وما زالت قصة "بنت الصباغ" تنتقل من مكان إلى مكان، حتى سما خبرها إلى الخليفة، فدهش لها، وأعجب بما فيها من لطف الحيلة، وبراعة الوسيلة. وقد كشفت له تلك القصة ما كان مستورا عنه من أخلاق "المرامق"، وأزاحت له الستر عما كان يخفيه من ذميم الحلال (أي: قبيح الصفات)، فعرف عنه ما لم يكن ليخطر ليه على بال. وما عم الخليفة (أي: لم يلبث) أن أمر باستدعاء الأمير "فضل الله" إليه. وقد سمع منه قصته كلها، وحزن لما لقه من جهد وعنت (والعنت: الوقوع فيم أمر شاق).

٢ - عتاب الخليفة

ثم قال له الخليفة:

"أعزز على ما لقيت - يا ابن أخي - من شقاء وبلاء! وليس لأحد حيلة في رد ما فات. على أنني لا أكتمك ما في نفسي من عتاب عليك، لنهاونك في أمرك، وتقصيرك في لقائي. فقد كان أول واجب عليك، لنهاونكم في أمرك، وتقصيرك في لقائي. فقد كان أول واجب عليك - منذ

حطت "بغداد" - أن تزورني لتهيئ لي الفرصة لتكريمك والحفاوة بك. ولست أدري: كيف يخجل مثلك مما يرتديه من أسمال بالية؟

وأنت تعلم أن المرء لا يكرم لماله وثيابه. وهل حسبت أن في استطاعة أحد -كائنا من كان- أن يدفع المقذور؟

وما أدري: كيف غاب من فطنتك وذكائك ما بيني وبين أبيك من صلوات المودة والإخاء؟"

* * *

فشكر الأمير "فضل الله" للخليفة فضله وحسن التفاته وكرمه وفادته. ودعا له بطول العمر وراحة البال. وأنساه -ما عمر به من رعايته- كل ما لقيه من المصائب والأحداث في رحلته. ثم بعث إليه الخليفة بفيض (أي: كثير) من الهدايا والنفائس.

٣ - إنصاف "الموفق"

وعرف الخليفة للسيد "الموفق" فضله الذي أوغر صدر خصمه (أي: ملأه غيظا)، وأغراه بالكيد له، واختلاق الأكاذيب عليه. فاستدعاه إليه، وأدناه من مجلسه، ورفعته إلى أعلى منصب، وأصبح له -منذ ذلك اليوم- نديمه ومدبره وسميره.

٤ - جزاء "المرامق"

وفكر الخليفة مليا (أي: وقتا طويلا) في أمر ذلك الحاكم الدساس، فكان أول ما بدأ به عزله. ثم اجتمع رأيهم على أن يعاقبه عقابا لم يعاقف بمثله أحد، فلم ير أبلغ -في إيذائه والنكايه به وتنغيص عيشه- من البقاء طول حياته مع عروسه المختارة: "عفريت النهار".

٥ - عاقبة الإساءة

ولم يكن للمرامق -حينئذ- بد (أي: مفر) من طاعة الخليفة.. ففضى حياته كلها مع "بنت الصباغ" معذبا منغصا (أي: مكدرا)، دون أن يجروا على مفارقتها والخلص منها. وكان ذلك -وحده- أبلغ انتقام وقع عليه، وأقسى عقاب حل به.

الفهرس

٤ الفصل الأول
٩ الفصل الثاني
١٨ الفصل الثالث
٢٣ الفصل الرابع
٣٢ الفصل الخامس